



التضليل الإعلامي الغربي لتبرير الحرب

بهاء درويش*

تاريخ الحروب

يمكن القول بأنّ البشريّة قد عرفت الحرب منذ أقدم العصور، ففي الماضي منذ الإنسان الأول حتّى العصور الوسطى المسيحيّة ولقرون تلتها كان يُقتل الخاسر ويُسلب كلّ ما معه من نساء وممتلكات. كان الجنود يعرفون أنّ مصيرهم إذا خسروا الحرب هو إمّا القتل أو الأسر، ليكون ضمن العبيد لدى الطرف المنتصر، إلى أن جاء العصر الإسلاميّ الذي عرّف مفهوم دفع الفدية لإطلاق سراح أسرى الحرب، وذلك كما جاء في سورة محمّد: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾¹.

ظلّ هذا الحال حتّى نهاية العصور الوسطى، ثمّ بدأت البشريّة بعد ذلك بقرون عدّة تعرف عمليّة تبادل الأسرى التي استمرّت في الحرب الأهليّة الأمريكيّة (1861-1865م) وإن كان الطرفان لم يخضعا لها.

بدأت بعد ذلك أوّل محاولة لصياغة تقنين للحرب في العام 1863م في

* أستاذ الفلسفة في جامعة المنيا - مصر، ونائب رئيس اللجنة الدوليّة لأخلاقيّات البيولوجيا

- اليونيسكو باريس.

1- سورة محمّد: الآية 4.

الولايات المتّحدة، عندما ظهرت فكرة ضرورة حماية مَنْ لا دخل لهم في الحرب، حيث صيغ «ميثاق ليبير» (Lieber Code) الذي اشتمل على بنود لحماية النّساء والأطفال وديانة العدو والآداب والعلوم. كما اشتمل على محاكمة مجرمي الحرب الذين يُمارسون أفعالاً عدائية ضدّ المدنيين، وضرورة معاملة أسرى الحرب معاملة إنسانية. على الرّغم من أنّ هذا الميثاق كان على مستوى الولايات المتّحدة فقط، ولم يكن مقصوداً به أن ينطبق على بلاد أخرى، إلّا أنّه في ما بعد اتّخذ أساساً لاتّفاقيات دولية لاحقة.

وفي العام 1874م، انعقد في بروكسل المؤتمر الدّوليّ، الذي دعت إليه روسيا وتبنّت فيه الإعلان العالميّ لقوانين الحروب وتقاليدها، وهو الإعلان الذي قُصدَ به أن تكون الحروب أكثر إنسانية، ولكن لم يُكتب لهذا الإعلان أن يدخل حيّز التنفيذ. ثمّ تلت في العام 1899م القواعد الملحقة باتّفاقية احترام قوانين الحروب وقواعدها، الذي وضع في مؤتمر السّلام الدّوليّ الأوّل في لاهاي، ثمّ ظهرت اتّفاقية تحسين حال المرضى والجرحى من أفراد الجيوش في الميدان في العام 1906م، التي تطوّرت مرّتين عامي 1929م و1949م.

في العام 1929م، ظهرت معاهدة معاملة الأسرى في الحرب، التي جرى تطويرها عام 1949م، ولم تكن اليابان عضواً فيها. وعندما قامت الحرب الكوريّة عام 1950م كان عدد قليل من الدّول هو من صادق على هذه المعاهدة، ولكن بعد ذلك صادق عليها كلّ الأطراف المتنازعة استجابة لطلب الصّليب الأحمر الدّوليّ. ثمّ يأتي قرار الجمعية العامّة للأمم المتّحدة في العام 1968م؛ ليتضمّن بنوداً على جميع أطراف أيّ نزاع مراعاتها، مثل منع شنّ أيّ هجوم على المدنيين، وضرورة التّمييز أثناء الحرب بين المدنيين والعزّل والجنود المقاتلين، ودعوة السّكرتير العامّ للأمم المتّحدة والصّليب الأحمر الدّوليّ والمنظّمات الأخرى المعنية؛ لدراسة ما إذا كان العالم في حاجة إلى اتّفاقيات دولية إنسانية أخرى أو قانونية؛ لضمان حماية أفضل للمدنيين وأسرى الحرب في النزاعات المسلّحة ومنع استخدام وسائل معينة في الحروب¹.

1- International Committee of the Red Cross, Howard Levie, History of the Law of War on Land, 03-06-2000:

<https://www.icrc.org/en/doc/resources/documents/article/other/57jqhg.htm>.

لم تتوقف المحاولات الدّوليّة عند حدّ احترام المدنيّين وحمايتهم وجعل الحروب أكثر إنسانيّة، بل تعدّتها إلى ميدان آخر وهو منع استخدام أسلحة معيّنة. فبعد أن كان الرّمح والسّيف والقوس والسّكين هي الأسلحة في الماضي، تطوّرت لاحقاً إلى وضع السّم في مقدّمها في القرن الثالث عشر. ثمّ عرفت البشريّة البنادق والمدفعية الثّقيلة في القرن الرّابع عشر، وبعدها استخدم الجنود البريطانيون في الهند رصاصاً بدلاً من أن يمرّ في جسم الإنسان، فإنّه يتمدّد داخل الجسم ويُمزّقه، وقد منع الإعلان الرّابع لمؤتمر السّلام الدّوليّ الأوّل 1899م استخدام هذا الرّصاص، ثمّ منعت كثير من الاتّفاقيّات أسلحة الغازات السّامة والكيماويّة والبكتيريّة¹.

على الرّغم من هذا النّشاط الدّوليّ عبر قرن ونصف لمحاولة جعل الحروب أكثر إنسانيّة ومنع أسلحة معيّنة، وعلى الرّغم من توقيع معظم الدّول عليها، إلّا أنّ الواقع يُظهر أنّ كثيراً من الدّول لا تستجيب لهذه القواعد وتخالفها متى كان هذا في صالحها.

تُشنّ الحروب عادةً لأسباب متعدّدة، فقد تُشنّ لأسباب اقتصاديّة أو دينيّة أو سياسيّة أو لاختلافات أيديولوجيّة، فتُشنّ مثلاً من أجل السّيطرة على مُقدّرات اقتصاديّة لدولة أخرى طمعاً في مواردها. كما ويمكن أن تُشنّ بسبب الاختلافات في المعتقدات الدّينيّة، وقد تُشنّ للاختلافات الأيديولوجيّة، أو من أجل السّيطرة على أراضي الغير حيث الأرض قد تُعطي من يملكها ميزة استراتيجيّة أو اقتصاديّة كأن تحوي بترولاً أو غازاً أو تكون ممراً مهمّاً. وقد تكون الحرب وقائيّة استباقيّة، وقد تكون حرباً من أجل الاستعمار، أو حرباً على الإرهاب.

ويُعدّ تقديم تبريرات للحرب مهمّة استراتيجيّة تُخفي بها الدّول أو الجماعات غالباً نواياها الحقيقيّة من الحرب؛ إذ تشهد كلّ صور استخدام العنف تبريرات للحرب تواجه بها الدّول بادئة الحرب النّظام الدّوليّ. إنّ تاريخ الحروب هو تاريخ تقديم تبريرات للحرب. وإن لم تكن الدّول أو الجماعات تهتمّ بتقديم تبريرات لشنّ الحرب عندما كانت البلاد متباعدة، والمصالح المتبادلة لم يكن لها الأهميّة

1- International Committee of the Red Cross, Howard Levie, History of the Law of War on Land, 03-06-2000:

<https://www.icrc.org/en/doc/resources/documents/article/other/57jqhg.htm>.

التي لها الآن. وبعد أن صغر العالم بسبب اختراع وسائل الاتصال والتكنولوجيا، وصار التّبادل التجاريّ والمصالح المشتركة مفهومًا وممارسة أساسية في علاقات البلاد في ما بينها، وخصوصًا بعد ظهور التجارة الرقمية، أضف إلى ذلك ظهور القانون الدوليّ، الذي وضع مبررات للحرب وقواعدها والممارسات المسموح بها أثناء الحرب - على التّحو الذي أسلفنا -، ذلك كلّ زاد من اهتمام الدّول بتقديم تبريرات للحرب.

الدّور المنوط بالإعلام أدأه

ككلّ التّكنولوجيات، يتطوّر الإعلام بوسائله تطوّرًا مستمرًا حتّى أصبحت وسائل الإعلام الجماهيرية وسيلة معرفة الأخبار ونقل المعارف والاتّصال بين البشر. ولمّا كانت وظيفة الإعلام المسؤول نقل الأخبار الدّقيقة والمعلومات الموثوق فيها، بل وتوجيه السلوك، فإنّ التّطوّر الذي حدث لوسائل الإعلام - مع الأسف - جعلها نقمة لا نعمة. فأثناء الحروب والأوبئة، ليس أمام النّاس سوى الجلوس أمام وسائل الإعلام المرئية أو المسموعة أو وسائل الاتّصال الاجتماعيّ لمعرفة الأخبار من خلالها. وهنا تنتشر الإشاعات والأخبار الكاذبة والأخبار المضلّلة حتّى أضحي العالم يحيا ما أُطلق عليه «فوضى المعلومات»، وأضحت أنهار المعلومات الملوّثة - التي تأتي من قنوات الإعلام المختلفة - الخاصية التي يتّصف بها عالمنا المعاصر¹.

تعدّ الحروب الحديثة من أهمّ المجالات التي أدّى الإعلام - وخصوصًا الإعلام الغربي - على الأقلّ دورًا فيها لدرجة أنّه يمكن القول الآن بأنّ الحرب هي رؤية إعلامية (Media Spectacle). فقد فتح التّصوير الباب أمام العبث بالواقع وتصوير ما ليس حقيقيًا أو نقل ما يرغب الطّرف المقاتل فقط نقله بالصّور، ثمّ التّكنولوجيات الحيّة التي أثارَت السّؤال حول العلاقة بين الصّحفيّ والمادّة الإعلامية، التي ينشرها، ثمّ الضّغط على الإعلام وعولمة الإعلام التي غيرت الطّرق

1- Council of Europe, Claire Wardle & Hossein Derakhshan, Information Disorder: Toward an Interdisciplinary Framework for Research and Policy Making, 2017: <https://rm.coe.int/information-disorder-towardan-interdisciplinary-framework-for-research/168076277c>.

التي تستخدمها السلطات العسكرية والسياسية في الدعاية والحديث عن الحرب. وأخيراً، توجد مراقبة الإعلام التي أضحت مرفوضة في المجتمعات الحديثة، والتي أدت بالأساسة إلى التفكير في أساليب أخرى جديدة للسيطرة على الإعلاميين¹.

الإعلام العسكري ودوره

منذ مدة والعسكريون يُضمّنون خططهم مبادئ مجتمع المعلومات، ومبادئ عالم يحيا في شبكة من إعلام المعلومات. لقد وُجد الإعلام العسكري منذ مدة ولكنه الآن يؤدي دوراً أكبر وأكثر تطوراً. وأصبحت هناك وحدات خاصة مهماتها التفكير في كيفية إنتاج المعلومات قبل العمليات العسكرية وبعدها، وحتى بعد تحقيق النصر.

لقد عرف العالم مهمة المراسل الصحفي العسكري بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر، وهو الذي ينتقل بيت موقع المعارك لينقل الأخبار من مواقع الحدث، وهو ما منعه ووقفت ضده كثير من الحكومات وفرضت رقابة على كل ما يُنشر. لقد فرض وزراء الحرب أثناء الحرب العالمية الأولى مندوباً لهم في كل صحيفة يراجع كل تقرير قبل نشره. ومُنِع الصحفيون من التواجد في ساحات المعارك وهو الإجراء الذي لا زال يُتبع في كثير من البلاد، ومن يتحدّى هذا القرار يُقتل فوراً. فالإعلام وفقاً لنظر كثير من الحكومات يجب أن يكون لصالح الدولة، بل وكان تدمير إعلام الطرف المعادي هدفاً عسكرياً. فقد قصف الصرب على سبيل المثال صحيفة (Oslobodjenje) لسرايفو مرّات عدّة. كذلك تُستخدم اليوم أدوات كهرومغناطيسية قادرة على إيقاف البث المرئي والمسموع، وهو ما حدث في بلجراد وبغداد في العام 2003م، إذ قُصفت مرافق الإذاعة المرئية في العراق، كما قُتل الأمريكيون صحفياً إسبانياً يوم 8 إبريل 2003م بقصف فندق فلسطين في بغداد، الذي كان يقيم فيه عدد من الصحفيين المستقلين، والذين أقرّوا أنّ القصف كان متعمداً لا بطريق الخطأ، كما زعموا. كذلك جرى قصف مقرّي تلفزيون الجزيرة وأبوظبي. وهكذا كان الأمريكيون يعاقبون كل من ينتقد غزو العراق². وقد

1- Arnaud Mercier, War and Media: Constancy and Convulsion, International Review of the Red Cross, Vol 87, No 860, December 2005, p. 649.

2- Ibid., p. 651.

ارتكب الجيش الإسرائيلي الجريمة نفسها باغتياله المباشر لعشرات الصحفيين، من وسائل إعلامية عدّة، كانوا يُعْطون أخبار العدوان ويوميّاته على غزّة بعد عمليّة طوفان الأقصى في 7/10/2023م.

لقد اعتادت الدّول أثناء الحرب استخدام الإعلام لصالحها مع كلّ خطوة من خطوات الحرب؛ قبل إطلاق القذائف نجد الإعلام يُبرّر سبب انطلاق الحرب وإطلاق الصّواريخ، وأثناء الحرب يحاول أن يُخفي صور الاعتداء، وبعد الحرب يحاول صياغة تصوّرات النّصر وإسكات صور النّقد كلّها.

ففي تقرير قُدِّم للأمم المتّحدة، اتّهم «تاديوس ماسوفسكي» (Tadeusz Mazowiecki) رئيس وزراء بولندا الدّور السّلبّي للإعلام في يوغوسلافيا السّابقة، الذي نشر أخباراً كاذبة أجّجت الكراهيّة وروح التّعصب المتبادل، وهو ما أشعل الصّراع بين البوسنة والهرسك. فقد قال في حوار أُجري معه: «إنّ الإعلام يُشجّع الكراهية بتقديم صورة سلبية من كلّ طرف عن الطّرف المقابل. على هذا النّحو، أصبح كلّ الكروات متمردون وأصبح الصّرب متمردون. ولم يكن الإعلام يذكر سوى جرائم الطّرف المقابل، لقد تحدّث الإعلام الصّربيّ كثيراً عن مؤامرات دوليّة تُدبّر ضدّ الصّرب. وهكذا كان الإعلام يُشجّع على كراهية أفراد القوميّات الأخرى، كما أنّه كان مسؤولاً عن التّطهير العرقيّ».

يمكن أيضاً أن نذكر هنا الصّور التي كان الإعلام المرئيّ يبيّنها عن مئات اللّاجئين من كوسوفا، وذلك لجذب التعاطف العالميّ معهم؛ لشرعنة قصف النّاتو في العام 1999م من دون موافقة من الأمم المتّحدة¹.

ظاهرة التّضليل الإعلاميّ

أمّا في ما يتعلّق بنشر الأخبار الكاذبة، فيمكننا ضرب مثال على تأثير الأخبار الكاذبة التي ينشرها الإعلام: ففي العام 1941م، أراد «جوزف جوبلز» (Joseph Goebbels) - وزير الإعلام الألمانيّ (1933 - 1945م) - أن يبعد انتباه المتابعين عن نيّته الحقيقيّة لغزو روسيا، وذلك بأن قام بإقناعهم أنّ هدفه الأوّليّ هو غزو بريطانيا. فقامت القوّات بالهبوط في جزيرة كريت. وفي 13 يونيو/ حزيران طلب «جوبلز» من صحيفة (Völkischer Beobachter) - وهي صحيفة

1- Arnaud Mercier, War and Media: Constancy and Convulsion, p. 652.

الحزب النازي- نشر مقال بعنوان «مثال جزيرة كريت» التي أشارت إلى التشابه الممكن في عمليات عسكرية لغزو عبر القناة. وبعد النشر بساعتين طلبت الغستابو (Gestapo) سحب أعداد الجريدة مدّعين أنّ ثمة خطأ حدث في النشر ما استدعى سحب الجريدة من السوق، ولكن طبعًا بعد أن كان جميع الإعلاميين والجواسيس قد قرأوا المقال¹.

أمّا في ما يتعلّق بالتبرير، فالصحفيون يميلون دائمًا لاستخدام حجة الولاء للوطن؛ إذ يُتهم كلٌّ من يختلف معهم في الرأى بعدم الولاء وبانتمائه للإرهاب. والمثال الأكثر وضوحًا لهذا الموقف الإعلامي هو اتهام شبكة أخبار فوكس (FoxNews) كلٌّ من يختلف مع خطة «جورج بوش» (George Bush) بأنّه من أتباع أسامة بن لادن².

ومع تقدّم وسائل التغطية الصحفية ازدادت وسائل التضييل: فمن الحرب العالمية الأولى، التي كان الإعلام يُجهز الأمة بأكملها من خلال إعلام مُراقب من الحكومة، إلى الحرب العالمية الثانية حيث الراديو والسينما كأدوات دعاية إعلامية، إلى الأقمار الصناعية وظهور شبكة الأخبار (CNN)، التي كانت تعمل على مدار الساعة أثناء حرب الخليج عام 1991م، ثمّ حرب أفغانستان والخليج حيث انتشرت شبكات قنوات إخبارية متنافسة تُقدّم أخبارًا متعارضة. هذا التقدّم الإعلامي في القرن العشرين مثّله أربعة تطوّرات ساعدت الإعلام على تشكيل الرأى العامّ وتبرير ما يحدث بغضّ النظر عن الواقع والحقيقة.

أول هذه التطوّرات هو الصُّور التي يمكن تشكيلها وتغييرها، والتي تُظهر ما يُريد إعلام الدولة أن يظهره لإخفاء العنف الممارس؛ لذلك عمدت القوّات المسلّحة في الغرب إلى التّحكم في صور الأخبار بإخفاء صُور الموتى بما في ذلك موتى الأعداء؛ لإظهار أنّ الحرب لا تهدف إلى قتل المدنيين، ولا حتّى جنود الأعداء. إنّ الصُّور الوحيدة التي ركّزوا عليها في حرب الخليج عام 1991م، هي إصابة الأهداف الاستراتيجية التي من المفترض أنّها تخلو من مدنيين³، ثمّ تأتي بعد ذلك وسائل الاتّصال بالأقمار الصناعية. وتعدّ حرب الخليج في العام 1991م

1- Arnaud Mercier, War and Media: Constancy and Convulsion, p. 652.

2- Ibid., p. 653.

3- Ibid., p. 654.

مثالاً للتغطية المباشرة على مدار الساعة من خلال الأقمار الصناعية والتلفراف، التي أعفت الصحفيين من ضرورة التعامل مع شركات الهواتف المحلية. من أمثلة التصليح الذي مارسه وكالة الاستخبارات المركزية: إنشاء قنوات تلفزيونية وإذاعات خاصة؛ لتبرير غزوها للعراق وترسيخ قناعة لدى الرأي العام بأن هدفها نبيل يتلخص في نشر الحرية والديمقراطية وأسلوب الحياة الأميركية. كذلك أسس وزير الدفاع الأميركي السابق «دونالد رامسفيلد» (Donald Rumsfeld) بعد أحداث 11 سبتمبر/أيلول «مكتب التأثير الاستراتيجي» لتزويد الصحافة بمعلومات مضللة. ولمزيد من التصليح كان المكتب يُزود وكالات الأنباء والصحافة المعلومات عبر طرف ثالث. وبقي المكتب ناشطاً إلى أن كشفت صحف، فاضطّر البنتاغون إلى إغلاقه. ثمّة أيضاً فضيحة أخرى اضطلعت بها قوات الاحتلال الأميركي، كشفت عام 2005م، وعُرفت باسم «رشوة الصحافة العراقية». وفي بعض تفاصيل هذه الفضيحة، أنّ عدداً من المحاربين القدامى أسسوا شركة «لنكولن غروب» وحصلوا على مقابلة للإشراف على كتابة مقالات يترجمها إلى العربية مقال عقراقي، ثمّ يدفعها إلى مقال آخر مهمته العمل على نشرها في صحف جرى الاتفاق معها مسبقاً من دون الإشارة إلى أنها إعلان. وبطبيعة الحال، كانت صحف أخرى غير مطلّعة على الأمر تُعيد نشر تلك المقالات باعتبارها من مصادر موثوقة.

كانت تلك المقالات تهتمّ بالجانب الإنساني للجنود الأميركيين، مثل إنقاذ طفل من الموت، أو الاهتمام الطيّب بالمصابين، أو توزيع المياه في القرى، أو رعايتهم عمليات مصالحة بين العشائر، خصوصاً إذا كانت مختلفة المذهب. وإذا كان كشف تلك الفضائح تسبّب في إغلاق شركات ومؤسسات أنشأتها الإدارة الأميركية، إلّا أنّ هذه الإدارة ما تزال تمارس الدور ذاته بأساليب أخرى ستكشف لاحقاً، كما كشفت فضيحة تدريب ضباط سابقين على التحليل، وتوزيعهم على المؤسسات الإعلامية باعتبارهم خبراء، بعد تزويدهم بمعلومات بعضها صحيح لكن معظمها مضلل. وقد كشفت هذه الفضيحة في مايو/أيار 2008م صحيفة «نيويورك تايمز» (The New York Times)، التي أفادت أنّ وزارة الدفاع كانت تُنظّم لهؤلاء رحلات خاصة إلى العراق ليعودوا إلى نشر ما زُوّدوا به من معلومات في الطريق، من دون الالتفات إلى ما شاهدوه على الأرض في تحليلاتهم.

وقد كانت وزارة الدفاع تضمن ولاء هؤلاء المحلّين بطريقتين:
الأولى: أنهم جنود سابقون لا يمكن أن يكونوا ضدّ المؤسسة التي أمضوا جلّ حياتهم فيها.

والثانية: أنّ الوزارة كانت تدفع لهم مقابل عملهم، فضلاً عمّا يتقاضونه من الوسائل الإعلامية.

والخطر في الأمر أنّ مصلحة هؤلاء أصبحت في إطالة أمد الحرب. وأصبحوا ينطلقون في تحليلاتهم من ضرورة إدامتها «لاستئصال الإرهاب»، وهكذا عادلّت فضائح الإعلام في بعض الأحيان جرائم الحرب¹.

ولم يكن التّضليل الذي سردناه أقلّ ممّا حدث لتبرير الولايات المتّحدة الحرب على أفغانستان، فقد كان تبرير الحرب على أفغانستان هو القضاء على زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن، والانتقام من أحداث سبتمبر/أيلول 2011م، التي ضربت فيها طائرتان برّجّي مركز التجارة العالميّ في نيويورك، بينما دمّرت الطّائرة الثالثة الواجهة الغربيّة لمبنى وزارة الدفاع الأمريكيّة - البنتاغون - في واشنطن. وتحطّمت الطّائرة الرابعة في حقل في ولاية بنسلفانيا، يُعتقد أنّ الخاطفين كانوا يعتزمون استخدامها في مهاجمة مبنى الكابيتول - مقرّ مجلسيّ النّواب والشيوخ - في واشنطن العاصمة. أصبح الرّأي العامّ العالميّ جاهزاً لقبول هذه التبريرات، وتالياً فقد بدأ غزو أفغانستان بعد أقلّ من شهر من هذه الهجمات بدعم من تحالف دوليّ بدعوى القضاء على «بن لادن» والإرهاب². دامت هذه الحرب حوالي عشرين عامّاً، كلّفت الولايات المتّحدة أموالاً باهظة من دون أن تفلح فيما زعمت أنّها ستحقّقه، وهو القضاء على الإرهاب.

وبعيداً عن التّفسيّرات والاجتهادات المختلفة لعدم نجاح الولايات المتّحدة في حربها، وعودة طالبان إلى الحكم في أفغانستان مع بدء الانسحاب الأمريكيّ من أفغانستان، فإنّ المبرّر الحقيقيّ الذي نراه يقف خلف كلّ التبريرات التي أعلنتها

1- موقع إسلام ويب، مصطفى زين، الإعلام الحرّ، 8-5-2008م:

<https://www.islamweb.net/ar/article/143920/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1>.

2- موقع بي بي سي نيوز عربيّ (BBC NEWS)، ديما عودة، هجمات 11 سبتمبر: بعد عشرين عامّاً من الحرب الأمريكيّة على الإرهاب، ما الذي حقّقه واشنطن؟ 1-9-2021م: <https://www.bbc.com/arabic/world-58335369>.

الولايات المتّحدة هو أنّ الحروب المتعدّدة للولايات المتّحدة في أفغانستان والعراق وسوريا وقبلها الصّومال وفيتنام لم تكن أكثر من مغامرة لاستعراض القوّة ومحاولة تغيير التّضاريس السّياسيّة لهذه المجتمعات من حيث كونها قوة عظمى تغازل من حين لآخر أحلامًا إمبراطوريّة، منتهجة في ذلك الواقعيّة الهجوميّة، وخصوصًا بعد انهيار الاتّحاد السّوفياتي¹.

لم تكن أوروبا في استخدامها للإعلام أقلّ تضليلًا من الولايات المتّحدة، فبعد اندلاع الحرب الرّوسيّة الأوكرانيّة فرضت روسيا والدّول الغربيّة قيودًا على عدد من وسائل الإعلام ووصل الأمر إلى حجّها ومنعها بهدف التّحكم بالرّواية حيث يريد كلّ طرف أن يكون الوحيد الذي يتناول ما يجري على أرض المعركة وتقديم الحجج والمبررات التي يرى أنّها ضروريّة لكسب تعاطف الرّأي العامّ ووقوفه إلى جانبه.

في الثّاني من مارس/آذار 2022م، أصدر الاتّحاد الأوروبيّ قرارًا حَظَرَ بموجبه قناة «روسيا اليوم» و«سبوتنيك» الرّوسيّتين ومنعهما من البثّ في دول الاتّحاد وأغلق مكاتب القناتين بحجّة نشرهما معلومات مضلّة.

ولم تكتفِ أوروبا بذلك، بل حُجِبَ موقعي القناتين على الإنترنت، فلم يعد بمقدور المواطن الأوروبيّ معرفة ما يجري في أوكرانيا من منظور روسيا.

ووصل الأمر مؤخرًا بأوروبا إلى الطّلب من غوغل حجّ اسمي الوسيّلتين الإعلاميّتين تمامًا، بحيث لا تظهران حتّى لدى البحث في محرّك البحث (غوغل). كما قالت كلّ من منصّات التّواصل الاجتماعيّ فيسبوك وإكس (تويتر سابقًا) ويوتيوب وتيك توك بأنّها لن تسمح لوسائل الإعلام الرّوسيّة الرّسميّة بنشر موادّها أو منشوراتها على صفحاتها في القارة الأوروبيّة بطلب من الاتّحاد الأوروبيّ.

كما طالب الاتّحاد الأوروبيّ هذه المؤسّسات بمنع منشورات وموادّ من يعمل لصالح «روسيا اليوم» و«سبوتنيك» ويُرَوِّج لهما أو يُعيد نشر موادّها من الظّهور في منصّات وسائل التّواصل الاجتماعيّ كافّة.

1- موقع بي بي سي نيوز عربيّ (BBC NEWS)، ديما عودة، هجمات 11 سبتمبر: بعد عشرين عامًا من الحرب الأمريكيّة على الإرهاب، ما الذي حقّقته واشنطن؟ 1-9-2021م: <https://www.bbc.com/arabic/world-58335369>.

في ظلّ هذه الظروف بات المواطن الأوروبي يسمع ويشاهد ويقرأ ما تقوله وسائل إعلام هذه الدول عن الحرب في أوكرانيا، ويطلع على مواقف الحكومات الغربية من الأزمة الأوكرانية، بينما تغيب تمامًا الرواية الروسية وموقف القيادة الروسية عن وسائل الإعلام الغربية.

وفي روسيا أيضًا تم التشدّد في التعامل مع الوسائل الإعلامية مع بداية الحرب على أوكرانيا، ولم يعد ثمة وسائل إعلام يمكن أن تُصنّف في خانة الإعلام المستقلّ أو المحايد عند تناول حرب أوكرانيا، بل أُغلقت بقرار من السلطات، أو قرّرت التوقف عن العمل من تلقاء نفسها بعد أن شعرت أنها لم تعد قادرة على العمل بحريّة في ظلّ الرقابة والقيود الحكوميّة الشديدة. ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل قد يواجه المواطن الروسيّ السّجن لمدة 15 سنة فقط لنشره مادة أو منشورًا يُخالف الرواية الرسميّة لما يجري في أوكرانيا¹.

الدّجل الإعلاميّ الصهيونيّ

ونتهي أمثلتنا بمثال من الأكاذيب والتّضليل الذي مارسه الصهيونيّة لكسب تعاطف العالم مع الكيان الصهيونيّ وإذكاء روح الكراهية للمقاومة الفلسطينيّة، الخبر الذي مرّته مراسلة قناة «أي 24 نيوز الإسرائيليّة» (i24 News) «نيكول زيديك» (Nicole Zedeck) خلال تغطية مباشرة قرب الحدود مع قطاع غزّة، عن قيام المقاومة الفلسطينيّة بقتل أربعين طفلًا إسرائيليًّا وقطع رؤوسهم بعد عملية طوفان الأقصى التي حصلت في 2023/10/7م.

سرعان ما تلقّفت الخبر وكالات الأنباء في «إسرائيل» والعالم، وحملت عناوين الصّحف الغربيّة الموالية «لإسرائيل»، والمتحكّم فيها المال اليهوديّ العالميّ بنشر الخبر في منشيات الصّحف العالميّة وعلى صفحات الجرائد، ومن بينها صحيفة «إندبندنت» البريطانيّة وقناة «سي إن إن» الأميركيّة، وقنوات أخرى عالميّة لا تقلّ شهرة. وكذا نشر الخبر الكاذب على منصة «إكس» (تويتر سابقًا).

1- موقع بي بي سي نيوز عربي (BBC NEWS)، روسيا وأوكرانيا: هل وقعت حربية الإعلام والموضوعية ضحية للحرب؟، 2022-3-13م:

<https://www.bbc.com/arabic/interactivity-60729496>.

كما تلقفت أيضاً حسابات مقرّبة من «إسرائيل» وأخرى يمينية أميركية المعلومة المضللة، بالرغم من عدم وجود أيّ تأكيد رسمي إسرائيليّ، أو أيّ دليل مادّي على صحّة الخبر، ومع ذلك انتشر انتشار النار في الهشيم، وامتلات به شاشات وبرامج التلفزة والمواقع الشّرقية والغربية.

أثارت المعلومة ضجةً رقميّة هائلة على مستوى العالم، خصوصاً في العالم الغربيّ، وتعزّزت بقول الرئيس الأميركيّ «جو بايدن» (Joe Biden) خلال اجتماعه مع زعماء الطائفة اليهودية في البيت الأبيض: «أنه لم يكن يعتقد أنه سيرى صوراً لإرهابيين وهم يقطعون رؤوس الأطفال». وخرج أيضاً بعض أعضاء الكونجرس الأميركيّ ليكون أمام الشاشات على هذه المجازر والانتهاكات للطّفولة ولحقوق الطّفّل والإنسان الإسرائيليّ.

ومع نفي المقاومة الفلسطينية نفيًا قاطعًا لهذه الادّعاءات، ومع وجود مقاطع تؤكّد على حسن معاملتهم للمدنيين والأطفال خلال عمليّتهم العسكرية، وكذلك مع عدم وجود أيّ صورة واحدة أو دليل واحد يثبت الواقعة، بدأ بعض الأشخاص وبعض الجهات المعنية بالتحقّق من صحّة ما يُنشر بالبحث في الأمر، والتحقيق في مدى صحّته، فتبيّن أنه خبر عارٍ تمامًا عن الصّحة، وأنه لا أساس له إطلاقًا. وقد قام موقع «ذا جراي زون» (The Grayzone) الأميركيّ المستقلّ بعمل تحقيق للتأكد من صحّة هذه الادّعاءات ومدى مصداقية الخبر، تبيّن منه أن مصدره جنديّ إسرائيليّ يدعى «ديفيد بن صهيون»، وقد تمّ التعريف به خلال مقابلة أجرتها معه «آي 24 الإسرائيلية» بصفته «زعيم استيطانيّ متطرّف».

وصرّح عدد من الصحفيين الذين كانوا في المكان نفسه مع الصحفية الإسرائيلية، التي صدر عنها الخبر المضللّ، أنهم لم يجدوا أيّ دليل على ذلك الادّعاء الشنيع، بالرغم من كونهم أجروا العديد من المقابلات مع الجنود والمسؤولين الإسرائيليين في المكان عينه، وسجّلوا إفادات أدلى بها شهود عيان لم يكن بينها أبدًا مثل هذا الخبر الملقّق.

وأكد صحفيّ إسرائيليّ عدم رؤيته لأطفال قتلى، مضيفًا أن كلّ ما سمعوه كان نقلًا عن جنود إسرائيليين. كما أنّ متحدثًا باسم الجيش الإسرائيليّ هو الآخر لم يستطع تأكيد عمليّة قطع الرؤوس هذه، بالرغم من انتشارها على نطاق واسع، وذلك في حديث له مع شبكة «سي إن إن» (CNN).

وقد اضطرَّ البيت الأبيض بعد التَّحَقُّق من كذب الخبر إلى التَّراجع عن تصريحات الرِّئيس بايدن، ونقلت صحيفة «واشنطن بوست» عن متحدِّث باسم البيت الأبيض قوله: «لا الرِّئيس بايدن ولا أيُّ مسؤول أميركيٍّ رأى أيَّ صور أو تأكَّد من صحَّة تقارير بشأن ذلك بشكل مستقلِّ». وأضاف المتحدِّث: أن تصريحات بايدن بشأن الفظائع المزعومة استندت إلى مزاعم المتحدِّث باسم رئيس الحكومة الإسرائيليَّة بنيامين نتياهو وتقارير إعلاميَّة إسرائيليَّة.

وأشار التَّحقيق الذي قام به موقع «ذا غراي زون» الأميركيِّ المستقلِّ إلى تراجع وسائل إعلام وصحفيين عن تقارير أوليَّة بهذا الشأن من بينهم صحيفة «إندبندنت» (The Independent) البريطانيَّة وقناة «سي إن إن» (CNN) الأميركيَّة، تمامًا كما تراجع عنها البيت الأبيض بعد أن تعذَّر إثبات هذا الادِّعاء الكاذب.

على الرِّغم من ثبوت زيف الخبر، وتراجع بعض من تورَّطوا في نشره، إلَّا أنَّه قد استقرَّ في مخيِّلة كثير من الغربيين والمصدِّقين للرِّواية الصهيونيَّة والموالين «لإسرائيل» وغيرهم ممَّن عرف الخبر ولم يعرف كذبه، وهذا ما كانت تتمنَّاه «إسرائيل» وحصل لها بالفعل، وكسبت تعاطفًا كبيرًا في الشَّارع الأوروبيِّ والعالميِّ¹. وهو ما يدلُّ على أنَّ الصَّهانية هم الصَّهانية، وأنَّهم لا يهتمُّ الحقيقة بقدر ما يهتمُّ تحقيق مصالحهم.

هذا الدَّور الذي أصبحت المجتمعات - التي تُطلق على نفسها في الغرب مجتمعات ديموقراطيَّة تعطيه للإعلام - يُفسِّر التَّضليل الذي تمارسه لمواطنيها قبل غيرهم، وتظهر بشكل جليٍّ أنَّها أبعد ما تكون عن التَّقَدُّم الحضاريِّ وعن مراعاة الإنسانيَّة، وأنَّ البربريَّة لا تزال تسكن عقليَّتهم ولكن بصور مختلفة. فهم لم يحترموا قواعد التَّعامل مع المدنيِّين في الحرب، وهي القواعد التي ذكرناها آنفًا، ولا احترموا إنسانيَّتهم ولا إنسانيَّة غيرهم، لتظهر حقيقتهم أنَّهم لا يحترمون قانونًا مدنيًّا أو أخلاقًا إنسانيَّة.

1- موقع إسلام ويب، طوفان غزة والإعلام المفضوح، 18-10-2023م:

<https://www.islamweb.net/ar/article/239155/%D8%B7%D9%88%D9%81%D8%A7%D9%86-%D8%BA%D8%B2%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D8%B6-%D9%88%D8%AD>.

علاج ظاهرة الفوضى الإعلامية

هذا التطور التكنولوجي في أدوات الإعلام، الذي ساعد الحكومات على ممارسة التضليل بشكل أكبر ممّا كان عليه الحال قبل التّقدّم التكنولوجي، أدّى بالمجتمعات الغربيّة ذاتها إلى انخفاض الثقة في وسائل الإعلام، وهو ما حاول الباحثون في ميدان الإعلام بحث سبل علاجه؛ لأنّ التطور التكنولوجي بدلاً من أن يصبح أداة جيّدة للإعلام أدّى إلى ما يُعرف بالفوضى المعلوماتيّة.

لفحص هذه الفوضى المعلوماتيّة والتّوصّل لأفضل وسيلة للتّعامل معها، حاول باحثان هما: «كلير واردل» (Claire Wardle) و«حسين دراخشان» (Hossein Derakhshan) (2017) وضع إطار تصوّريّ للتّعامل مع هذه الفوضى المعلوماتيّة، وذلك بأن اقترحا تقسيم المعلومات غير الدّقيقة إلى معلومات خاطئة (misinformation) وهي تلك المعلومات التي يتمّ تداولها دون معرفة أنّها خاطئة، وتاليًا من دون نيّة الإيذاء بها، ثمّ المعلومات الخاطئة (disinformation) التي يُعرف ناقلها أنّها ستُسبّب ضررًا، وأخيرًا المعلومات الصّحيحة (malinformation) التي يُعرف ناقلها أنّها معلومات سرّيّة، وكان يجب أن تبقى معلومات خاصّة، إلّا أنه قام بنقلها لإحداث ضرر.

في مقابل هذه الأنواع الثلاثة من المعلومات، يستخرج الباحثان عناصر ثلاثة أخرى في الفوضى المعلوماتيّة هي: مُرسل الرّسالة أو المعلومة، الرّسالة أو المعلومة، متلقّي الرّسالة. ولا شكّ في أنّه يوجد تمييز بين مخترع المعلومة ومُنّج المعلومة ومُوصّل المعلومة. يجب علينا محاولة التّعرف على كلّ منهم وفهم دوافع كلّ منهم في اختراع أو إنتاج أو توصيل المعلومة. كذلك، يجب فهم أنواع الرّسائل التي ينتجها قائلها وفحص كيفية تلقّي كلّ منها وتفسيرها والتّعامل معها. وهل يتمّ إعادة إرسالها كما وصلت أم يتمّ مشاركتها على نحو مختلف¹؟ انتهى الباحثان إلى عدم قدرتهما - أو قدرة غيرهما - على حلّ معضلة الظّاهرة المعقّدة التي تتنامى مع الأيام، وهي ظاهرة الفوضى المعلوماتيّة².

من هنا، فإنّه من الواجب في ظلّ هذه الفوضى الإعلامية والممارسات التّضليليّة،

1- Council of Europe, Claire Wardle & Hossein Derakhshan, Information Disorder: Toward an Interdisciplinary Framework for Research and Policy Making.

2- Ibid., p. 63.

التي لا يكفّ الغرب بها عن تشكيل الوعي الجمعيّ تشكيلاً يُحقّق أغراضه، أن نواجه آلة الحرب الإعلامية بألة مضادة تكشف الوقائع بالأساليب الحديثة نفسها تفتيداً للوقائع المضلّلة وتثقيفاً للرأي العامّ المستهدف بشكل مستمرّ، ولا سيّما أنّ الإعلام الحديث بأدواته المتطورة كافّة، قد أتاح الفرصة - في الوقت نفسه - للمتابعين في العالم بأسره أن يتلقّوا معلوماتهم من مصادر متنوّعة؛ إذ أضحت مصادر المعلومات من التّعُدُّ والتّنوّع حيث يصعب السيطرة عليها تماماً.

ويؤكد هذا الحكم حصول معظم الشّباب في العالم الغربيّ على معلوماتهم من خلال المنصّات الرّقميّة، وخصوصاً «تيك توك»؛ إذ سمحت لهم هذه المنصّات بالوصول إلى المعلومات بشكل مباشر من خلال متابعة النّشطاء الفلسطينيين على الأرض. وكان للنّشطاء الفلسطينيين من الشّباب، مثل محمّد الكرد، دور مهمّ في تعريف الشّباب الغربيّ بالقضيّة الفلسطينيّة وتكوين رأي عام مؤيّد للموقف الفلسطيني¹.

1- موقع مركز الأهرام للدراسات السياسيّة والاستراتيجيّة، دينا شحاتة، كيف نظر الإعلام والرأي العامّ الغربيّ لحرب غزّة 2023؟، 2023-1-23م:

<https://acpss.ahram.org.eg/News/21033.aspx>.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع باللّغة الأجنبيّة

- Mercier, Arnaud, War and Media: Constancy and Convulsion, International Review of the Red Cross, Vol 87, No 860, December 2005.

المصادر والمراجع الإلكترونيّة

- موقع إسلام ويب، طوفان غزة والإعلام المفصوح، 18-10-2023م:
<https://www.islamweb.net/ar/article/239155/%D8%B7%D988%D981%D8%A7%D986-%D8%BA%D8%B2%D8%A9-%D988%D8%A7%D984%D8%A5%D8%B9%D984%D8%A7%D985-%D8%A7%D984%D985%D981%D8%B6-D988%D8%AD>.
- موقع إسلام ويب، مصطفى زين، الإعلام الحرّ، 8-5-2008م:
<https://www.islamweb.net/ar/article/143920/%D8%A7%D984%D8%A5%D8%B9%D984%D8%A7%D985-%D8%A7%D984%D8%AD%D8%B1>.
- موقع بي بي سي نيوز عربي (BBC NEWS)، ديما عودة، هجمات 11 سبتمبر: بعد عشرين عامًا من الحرب الأمريكية على الإرهاب، ما الذي حققته واشنطن؟ 1-9-2021م:
<https://www.bbc.com/arabic/world-58335369>.
- موقع بي بي سي نيوز عربي (BBC NEWS)، روسيا وأوكرانيا: هل وقعت حرية الإعلام والموضوعية ضحية للحرب؟، 13-3-2022م:
<https://www.bbc.com/arabic/interactivity-60729496>.
- موقع مركز الأهرام للدراسات السياسيّة والاستراتيجيّة، دينا شحاتة، كيف نظر الإعلام والرأي العامّ الغربيّ لحرب غزّة 2023؟، 23-1-2023م:
<https://acpss.ahram.org.eg/News/21033.aspx>.

- Council of Europe, Claire Wardle & Hossein Derakhshan, Information Disorder: Toward an Interdisciplinary Framework for Research and Policy Making, 2017: <https://rm.coe.int/information-disorder-towardan-interdisciplinary-framework-for-research/168076277c>.
- International Committee of the Red Cross, Howard Levie, History of the Law of War on Land, 03-06-2000: <https://www.icrc.org/en/doc/resources/documents/article/other/57jqhg.htm>.